الشعب لا يفهم

هذا العنوان هو للأسف الشديد عقيدة متجذرة في داخل كل مسئول تجاه مَن يعملون معه ، على اختلاف درجاتهم ، تلمس هذا من جانب مدير الإدارة ، إلى رئيس مجلس الإدارة ، إلى الوزير ، إلى رئيس الوزراء ، وبالطبع هم ينقلون هذه النظرة ، ويعكسون هذا الرأي بالتالي إلى أكبر رأس في البلاد !

الذي أقصده أن مَن بأيديهم الحل والربط يجب عليهم اتخاذ القرارات الإيجابية التي تريح المواطنين ، وبالتالي ترفع قدر الإنتاج والإنجاز ، إن هؤلاء المسئولين يقتنعون في أعماقهم أن الشعب بما فيه العاملين لا يفهمون ، مشغولون بلقمة العيش ، أو فكرة الإنجاب ، أو فكرة الزواج للمرة الثانية ، إلى آخر هذه الأسباب التي يقدمها بعض العاملين إلى المسئول الأعلى على طبق من فضة بحجة أنهم يعرفون ، وبحجة أنهم يرون ، وبحجة أن كل ما يبتغونه هو راحة المسئول وفقط !!

والغريب أن المسئول ... المدير ، أو الوزير ، أو رئيس مجلس الإدارة يصدق هذه الادعاءات ، ويركن إليها ، ولا يفكر للحظة واحدة في تمحيص وتقييم كلام مَن حوله ، وينسى ويتناسى اليومَ الذي كان فيه موظفاً صغيراً ، وكان له فكر ، وكانت له رؤية مهما كانت غير مكتملة ، إلا إنها كانت تدل على أنه يفهم ، بل وفاهم لأغلب ما يدور حوله ،

فكيف يلغي من ذاكرته أنه كان عاملاً صغيراً يوماً ما ... يأمل ويحلم ويتطلع ، ولم يكن ناقص الفهم البتة .

ما يشغل المسئول الآن ويعنيه أنه رئيس إدارة ، أو وكيل وزارة ، أو رئيس حي ، أو رئيس مدينة ، أو محافظ ، أو وزير ، أو رئيس وزراء إلى آخر تلك المسميات البراقة التي تجعله يعيش أيامه نشواناً ... الأزرار عن يمينه ، يستدعي بها مَن يشاء ، وعن يساره صف من السكرتارية ينحني وينثني إجلالاً وتعظيماً دون تفكير لكل ما ينطق أو يشير به ... ويتناسى العاملين لديه ، الذين يدفعون راتبه من حر مالهم ، ويكون جزاؤهم أنه يعتبرهم لا يفهمون !!! وأكثر ما يكتفي به ، وعلى أحسن تقدير أن يوضع أمامه كومة من الأوراق الروتينية يوقع عليها ورقة ورقة بمعرفة مدير مكتبه الذي يتولى تقليبها .

ومدير المكتب هذا يؤكد له بين اللحظة والأخرى أن الكل لا يفهم ، والكل مشغول بفكرة لقمة العيش ، أو الإنجاب ، أو الزواج الثاني ، أو الثالث ، أو الرابع ، أو ... وهكذا تدار الوزارات ، وهكذا يفكر السادة المسئولون ، أضف إلى هذا أنه بات اليوم لا وقت حتى للمسئول لكي يوقع على الأوراق ؛ لأنه إما ذاهب إلى المطار لاستقبال الوفد الفلاني ، أو استقبال الزائر العلاني ، ناهيك عن الاجتماعات المتتالية ، التي لا تنتهي ! ويدخل المسئول إلى الاجتماع ، ويخرج منه إلى اجتماع آخر ، ثم ثالث ، ورابع ، والغريب أن هذه الاجتماعات مدفوعة الأجر ، بينما الواجب أن يكون الأمر غير هذا ؛ لأن الاجتماع داخل الوزارة ، أو الشركة ، أو

المؤسسة ... لا يتكلف الانتقال ، وحتى في حالة انتقاله ، فتكون بسيارة من الوزارة ، أو الشركة ، أو المؤسسة ، وبنزين السيارة على حساب مكان عمله ، ومع ذلك يخرج من اجتماع ؛ ليدخل آخر ، وكل اجتماع بأجره المبالغ فيه ، فتكون حصيلة آخر اليوم مبلغاً لا يُستهان به ، إلى جانب راتبه الشهري وبدلاته التي لا تنتهي ...

ومَن يتابع حركة الاجتماعات يعتقد أن العمل قائم على قدم وساق ، والذي لابد منه أن يكون العمل فعلاً قائماً على قدم وساق من أجل راحة المواطن ، ولكن هذا لا يحدث في الواقع ، ولا يمكن أن يحدث ما دامت العقيدة المتأصلة داخل كل مسئول أن المواطن لا يفهم .

وهكذا نجد حركة هنا ، وحركة هناك ، واجتماع يعقبه اجتماع ، ولا فائدة مرجوة تعود على المواطنين ممن يعملون في المكان –أي مكان – لماذا يحدث هذا ؟ والرد بسيط :

لأن المواطن أو الشعب لا يفهم !!!

***

قضية المسلمين مع الأقباط

قضية المسلمين مع الأقباط قضية أُثيرت مئات المرات على مدى تاريخي طويل ، والملاحظ أنها قضية لا تُثار ولا تطفو على السطح إلا في لحظات اضمحلال الأمة ، تثار القضية ويكتب فيها المفكرون المستنيرون كاشفين عن آرائهم بضرورة مساواة المواطن المسيحي بالمواطن المسلم في الحقوق والفرص وبالطبع الواجبات ، وهذا الكلام يجر خلفه كلاماً آخر مثل أحقيتهم في إقامة دور للعبادة ، وأحقيتهم في التواجد الفعَّال في مجلس الشعب والشورى ، وأحقيتهم في الوزارات ، وفي ... وفي ... إلى آخره .

والواقع أن هذه أوضح وأظهر قضية تجسد البثور والنتوءات على سطح التفكير المصري ، بمعنى أننا لم نتداول أو حتى ندير القضية بمنطق العقل الرشيد صاحب النضج الضارب في أعماق التاريخ ، من أيام ثبت فيها وتأكد أننا أصحاب أول تفكير في الوحدانية والتوحيد ، الذي أتى من عندنا من زمن الفراعنة ، ولائحة أخناتون المنادية بالإله الواحد ... كان الأجدر بنا ، بعدما تحولت الحالة إلى قضية بين المسلمين والأقباط في مصر -وهي قضية حادة ومعقدة وتنذر بالمتاعب والآلام الممتدة والاشتباكات التي ليس من ورائها أي فائدة أو مكسب لأحد الطرفين- أقول كان الأجدر بنا عمل محاورات ومناظرات مع الإخوة الأقباط حول جوهر ومعنى المسيحية ، وذلك على ألا يخرج علينا مَن يقول إن هذا يعد تبشيراً !

فما أراه أنه يلزم المسلمين بشكل ضروري أن يعرفوا جوهر وحقيقة المسيحية كدين سماوي ، وفي هذه الحالة كنا سنفاجأ بأنه لا خلاف ولا اختلاف في أغلب الأمور الأساسية في حقيقة الديانتين ، فالله واحد في علاه في الديانتين ، والعمل الطيب أساس الإيمان ، والقيامة حق ، والحساب حق ، والجنة والنار حق ، والصلاة فريضة وواجب في الديانتين ، والصلاة بهيئتها واحدة في السجود في بعض الأحوال ، والصوم واجب لمن يطيقه ، وهناك بدائل كذلك لمن لا يستطيع موجودة في الديانتين ومتشابهة ، والكثير أيضاً مما لا مجال لتعديده ...

فإذا سألت المسيحي المستنير يقول لك إن للسيد المسيح (عليه السلام) طبيعتين ، الطبيعة الناسوتية وهي الإنسية والبشرية ، والطبيعة اللاهوتية ، وهذه هي نفخة الله التي خلق بها السيد المسيح دون أب ، هل في هذا الكلام ما ينافي عقيدة المسلم ؟ أليست هذه هي الحقيقة التي نعلمها جميعاً ونؤمن بها جميعاً ؟ بل إننا جميعاً فينا من تلك النفخة من روح الله سبحانه وتعالى ، ولكن بنسبة محددة للبشر ، وكان ذلك أكثر عظمة للسيد المسيح (عليه السلام) ، وإلا لما أحيا الموتى وما شُفي الأعمى والأبرص والأكمه ... إلى آخر ما يحكي لنا القرآن الكريم عنه بتفاصيل مكررة ومؤكدة ، فهل في هذا الكلام ما ينافي الحقيقة ، أو يستفز عقيدة المسلم المؤمن الموحد بالله العلي العظيم ؟

ثم نأتي إلى مواضيع ونقاط أشد حساسية وغموض بالنسبة للمسلم ، وهي حين نسأل عن حقيقة صلب السيد المسيح (عليه السلام) من أجل تخليص البشرية من أوزارها وذنوبها في المسيحية ، وفي الوقت نفسه ينفي القرآن الكريم هذا بقوله : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ ﴾ [النساء : 157] بمعنى النفي المطلق لهذه المقولة الأكيدة عندهم كمسيحيين ، والمرفوضة عندنا كمسلمين .

والرد الفصل موجود لدينا في القرآن الكريم بأنه شُبه لهم بمعنى أن الله سبحانه وتعالى قد أراد فحقق لهم هذا التشبيه ، وأنها قبل كل شيء مشيئة الله في ذلك بأن شُبه لهم ، وهو القادر على غير ذلك ، ولكنه سبحانه وتعالى أراد لهم ، وأراد للبشرية ما كان من تشبيه ؛ لتظل هناك أمور غير محسومة ، وليظل هناك خلاف باقٍ ما بقيت البشرية ، وإلى أن تقوم الساعة ، فيحكم الله بيننا بناءً على عظيم ومنتهى علمه ومعرفته .

ثم يبقى الأمر الأخير من وجهة نظري المتواضعة ، وهي مسألة الثالوث "باسم الآب والابن والروح القدس" ، والآب هو الله سبحانه وتعالى ، ولا خلاف على هذا المفهوم ، والابن هو السيد المسيح (عليه السلام) ، وهنا ينقسم المسيحيون إلى فئتين ، الفئة المستنيرة ، ومنها الغرب كله بلا استثناء ، يعتقدون بأن كلمة الابن ما هي إلا بالمعنى المجازي فقط، والذي يحمل معنى التشريف للسيد المسيح (عليه السلام) لا أكثر ولا أقل، والفئة الأخرى من العوام والبسطاء ، وخاصة في مصر ، فهم يقولون

بأنه ابن الله ، ولكن بالمعنى المجازي أيضاً وليس بالمعنى البشري ، إلا إنهم بسطاء قليلي الوعي ، فيتمسكون بحرفية الكلمة ، ولكن كما قلت مجازياً وليس بشرياً .

وقد يقولون –عن جهل كذلك– بأن المسيح هو الله ، وهذا موجود على ندرة بين أقباط مصر ، أما الروح القدس فهي سيدنا جبريل (عليه السلام) ، وبهذا المعنى لا يكون هناك خلاف ...

وهنا لي كلمة فاصلة أود أن أسجلها ، وهي أن مسألة الثالوث وهي الآب والابن والروح القدس في اللاهوت ، أي الدين المسيحي ، وبالنسبة للمفكرين ، ليس لها معنى أو مدلول إلى يومنا هذا قاطع ومانع وحاسم ، بل هي عبارة كثر فيها الكلام ، وما يزال ، وليس لها من حدود نهائية ، أو تعريف نهائي ، أو قول فصل ... ألم نلمس أن المتشابه بين الديانتين كثير ؟

فلماذا لانترك ما هو مختلف عليه ؟ وخاصة بعد أن تيقنَّا أنها مشيئة الله سبحانه وتعالى ، وبعيداً عن مزيد من التفنيد والكلام ... لماذا لا ندع المختلف عليه ، ونستمتع بما هو متفق عليه ، ونعيش الأخوة بمعناها الواقع بيننا ، ولن يكون ذلك تفريطاً في ديننا بالمرة –ولكنه على العكس – سيكون الفهم والاستيعاب لمشيئة الله في خلقه كما يقول المسلمون ، ومشيئة الرب في خلقه كما يقول المسيحيون .

***

هدف الإخوان

لا أنكر أو أنفي أن كل مخلوق منا له أهداف بالطبيعة التي خلقها الله فيه سبحانه وتعالى ، وكأن هذه الطبيعة التي خُلق بها كما ذكرت ، هي بمثابه الحافز الذى لا يخمد من أجل أن يستمر الإنسان في الجري واللهث ؛ ليصل إلى هدفه المأمول ، وكل منا له أكثر من هدف ، ما إن ينتهي من واحد منها ، إلا ويبرز له الثاني والثالث ، وهكذا دواليك ... إن في داخل كل منا مجموعة من الأهداف هي بمثابة الآمال ، وأروع من الأحلام التي يطمح للوصول إليها مهما كلفه هذا من عناء غير محدود أو موقوت ، بمعنى أنه ليس له نهاية ! هذه هي الطبيعة البشرية ، ومن أقوى وأشد وأعمق الأهداف فينا هو الهدف العقائدي ، منذ أن خلق الله الأرض ومَن عليها ، وأكبر المعارك تقوم باسم العقيدة ؛ لأنها ببساطة ، وكأنها غريزة لا يمكن للمرء الفكاك منها ، أو محاولة إخمادها بأي حال من الأحوال .

ملايين البشر تصارعوا وتحاربوا من أجل وباسم العقيدة ، ومن سخرية القدر أن هذه الصراعات التي قامت وما زالت إنما قامت لأسماء مختلفة من العقائد يهودية ومسيحية وإسلام ، وإن كان الجوهر فيهم لا يختلف عن بعضه بأي حال من الأحوال ! وهو الأمر الذى يعد غامضاً محيراً لا تفسير واضح له ، اللهمَّ إلا التفسير المصطنع والمفتعل الذي يبررون به مواقفهم الضبابية ، ولكن الشعوب عامة تقبل هذا الأمر ، ولا

أقول ترحب به ؛ لأن هذه الشعوب مهما اختلفت في ألوانها وأشكالها ولغاتها ، وحتى تفكيرها فهي في النهاية من جنس البشر الذي تمثل عنده العقائد كل قيمة سامية ، سواء أخلاقية أو اجتماعية أو حتى سياسية على أساس أنها محور للحياة ، بل وسبب للحياة .

والأمثلة كثيرة في تاريخ البشرية ... وأنا لا أريد أن أقسمها أو أصنفها إلى درجات أو قوى أو مناطق جغرافية ، ولكني أستطيع أن أقول إن الغرب وعلى رأسه الآن الولايات المتحدة نتيجة لدقتهم وعنايتهم بالتحليل النفسي للشعوب ، وكذلك تتبع تاريخ هذه الشعوب المعنية ، فقد أدركوا من أزمنة طويلة أن مسألة العقائد يمكن استغلالها ؛ لبسط سلطانهم ، وسوق الشعوب مثلما نسوق الماشية إلى الحظائر ، ولن أضرب الأمثال بالعراق أو ليبيا أو سوريا أو ... ولكني أركز فقط على مصر ... وفي مصر كانت ضالتهم المنشودة جماعة الإخوان المسلمين ... وللأسف انطلى على الإخوان احتضان أمريكا لهم !! رغم أن أبسط حقائق فكرة الاحتضان أنها ليست كلها حباً حقيقياً ، والأغلب أنها وسيلة لغاية أبعد من مسألة الحب أو الإيمان بعقائدهم ، وفي الحب كما يقولون يغيب العقل والمنطق ... وعلى هذا انجرف للتصرفات غير المنطقية وغير الدينية ، وغير الصحيحة ...

إني أتكلم عن الإخوان ؛ لأني أعرفهم وتربيت بينهم منذ كنت في السادسة من العمر حتى يومنا هذا ، خالطت وعاصرت أئمة الإخوان

المسلمين اختلاطاً شبه يومي ، ولسنوات كما أشرت ، ولا أستطيع أن أقول إنهم مثل القادة الذين عرفناهم هذه الأيام ، والذين تم القبض عليهم تباعاً ... لا ... القادة السابقون لم يكونوا مغرضين ، ولم يتجهوا إلى أمريكا أو غيرها ، وهم على وعيٍ كاملٍ بفكرة تقسيم الدولة المصرية ، وإعطاء سيناء لغزة ، وتأجير قناة السويس لقطر ، وإعلانها منطقة لا تتبع الأراضي المصرية ! والأكثر والأفجع معرفتهم أن كل هذا لحماية دولة إسرائيل !

الإخوان القدامى الذين عرفتهم من خمسين سنة ، كان لا يمكن أن يصفهم أحد بالخيانة ، أو بيع الأرض من سيناء ؛ لتدخل في ملكية أمريكا ! كان لا يمكن ألا تعنيهم الوطنية المصرية ، وكانوا لا يمكن أن يقولوا إنه لا فارق في أن تكون حلايب وشلاتين أرضاً مصرية ، أو هي للسودان ، أو يقولوا سيناء لنا فيها جزء ولغزة جزء بحجة أن كلها أرض إسلامية !!!

إن فكرة الوطنية ليست ضد الإسلام ، اللهم إلا إذا كانت فكرة الوطن ليست واضحة لديهم ، ولا تجري في عروقهم .

إخوان اليوم كان الأجدر بهم ، والذي فاتهم فعلاً ، وما سيدفعون ثمنه لأجيال طويلة ... فقد كان الأجدر بهم أن يكونوا أولاً جماعة خيرية واسعة العطاء تساهم مثلاً في تقليص ظاهرة البطالة ... تساهم في علاج الفقراء ... تساهم في تسكين المشردين والمهمشين ... تساهم في النهوض بالصعيد المحروم ، بل وتساهم في استحداث نظام لدفع أجر البطالة ،

ولهم من القدرة الشيء الكثير ... إن كل هذا الاحتكاك بالمشاكل يوسع مداركهم ، ويجعلهم يضعون أيديهم على مَواطِن الداء والقصور في وطننا ، والأكثر من هذا كان سيحدد ، ويشخص لهم مَواطن الضعف والقصور في أمتنا وأسبابها .

كان على الإخوان أن يقدموا أنفسهم للشعب بطريقة أكثر ذكاءً بعد حوالى ثمانين عاماً قضوها يعملون تحت الأرض يُغتالون ويسجنون ويتخفون ... أجيال ذهبت منهم دون أن يتعلموا ماذا يحتاج الشعب ، وكذلك دون أن يضعوا لأنفسهم منهاجاً مكتوباً يعدلونه باستمرار ، ويكون بمثابة علامات مهمة ، ويكون بمثابة خارطة طريق لهم ... لكنهم قد غفلوا عن كل هذه المراحل ، وتصوروا أنهم بالاتفاق مع أمريكا سيكون لهم الخلاص ، وسيكون لهم سدة الحكم ، دون مشروع يلتزمون به ، أو فكرة قومية عندهم ، والأبسط من هذا والأكثر بداهة أن يأخذوا من القرآن الخطوات وسلالم الطريق ، يمشوا ويصعدوا على هداه ، هذا الكتاب الذي فيه ما لا تحويه دساتير الدنيا من بدء الخليقة إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها .

وأنا ذكرت من قبل أنني عاشرت الجماعة ، وأدَّعي أنني أعرفهم لمدة تزيد على أربعين سنة ، وأسجل هنا أنه في يوم كنت في حضرة أحد أئمة الإخوان ، والذي قضى أكثر من ثلاثين عاماً في سجون مصر ، وكان هذا اللقاء حسب ما أتذكر في حوالي تسعينيات القرن الماضي ، أي القرن

العشرين ، وتطرق الحديث بيننا من أول اعتزال الفنانة الكبيرة شادية ، إلى أنهم كإخوان ليس لديهم خطة ومنهاج للحكم ، فكيف سيعملون ؟ وكيف سيكون الأمر ؟

فردَّ عليَّ هذا القطب الإخواني – رحمه الله – من فوره بأن هذا الذي تطلبينه ليس مهماً ، أو ليس ضرورياً ، إنما المهم أن نصل إلى الحكم أولاً ، ثم يأتي بعد هذا كيف يكون هذا الحكم ... لا أدَّعي وقتها أنني كنت في كامل الفهم ، أو النضج ، إلا إننى بيني وبين نفسي تعجبت ، ثم آثرت الصمت ؛ لأنني لا أعرف غير هذا ، ولا أقوى على مناقشته بالحجة الواجبة ... لو أنهم فكروا قليلاً لأدركوا رغم أنه لم يكن الإرهاب ظاهراً على السطح قبل الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 ، إلا إن الولايات المتحدة لا تُعوِّل على العرب ، ولا تراهم ، ولن تراهم أكثر من دروع بشرية يستخدمونها عند الحاجة لمحاربة كل مَن تُسول له نفسه الاقتراب من أمريكا ، أو حلفائها ، وهذا ما كان يحدث من الدولة العثمانية أو الاستعمار الانجليزي ، عندما كانوا يرسلون المصريين وفلاحي البلاد التي تحت الحماية ؛ لتحارب عنهم ، وكانوا يسمونهم "لحم المدافع" ، إلا إن أمريكا بالآمال العريضة التي بنتها على تنظيم الإخوان ، أغفلت حقيقة أن هذا التنظيم الآن ، وبعد الجيل القديم منهم أصبحوا أصل الإرهاب في العالم ؛ لأنه تنظيم متطرف بكل ما فيه من أسماء وجماعات وتشكيلات مثل الإسلامية ، أو ... ولماذا نذهب بعيداً وجذورهم قاعدة بن لادن ؟

ليسوا كلهم إخواناً مسلمين

أمر في غاية الغرابة والمفاجأة غير المتوقعة لأي مواطن مصري ، هذه الأعداد التي تخرج كل يوم جمعة في مظاهرات يُقال عنها أنها من فعل الإخوان المسلمين ! فمتى حدث هذا الحشد الذي ليس له حد يتوقف عنده ؟ وما كل هذا الإصرار ؟ وما كل تلك المقاومة التي نشاهدها ، ونكتوى بنارها ، وكأنه لن تكون هناك نهاية أو توقف ! والسبب دائماً جاهز ومعلن في كل وسائل الإعلام بأنهم الإخوان المسلمون ! أيضاً نفاجأ بوجود كمية سلاح لا نهائي ، وأنواع متطورة منه لم نسمع عنها من قبل !

وكأن الإخوان دولة داخل دولة لها سلاحها ، ولها فرقها المدربة من مواطنين شديدي الإيمان والاقتناع بما يعملون ! وليس هناك من قيمة إنسانية أو دينية أو منطقية يمكن أن تردعهم .

على الجانب الآخر بحَّ صوت الحكومة الحالية ، وبحَّ صوت كبار المسئولين في محاولة التفاوض معهم ، وهم يؤكدون ويعلنون على لسان كبار المسئولين أن الدولة بكل هيئاتها لا ولن تستبعد أي مواطن مهما كان انتماؤه ، إخواني أو سلفي ، أو حتى من الفلول – كما يسمون رجال الرئيس المبارك – على أساس أن لكل فئة الحق في أن تشارك في صياغة وتحقيق حكم بلدها ، وأن تدلي بدلوها فيما تريده لحكم هذا الوطن من

خلال مجلس الشعب ، ومن قبله في التأكيد على مواد في الدستور لها أهمية وضرورة من وجهة نظر حتى الإخوان بالذات .

في كل دقيقة يخرج علينا الإعلام بالتأكيد على عدم الإقصاء ، وعدم الاستبعاد ، وعدم التهميش حتي طلبوها صريحة واضحة بطلبهم المصالحة – هكذا بالعربي الواضح الصريح – ونحن نظن جميعاً أن جماعة الإخوان ترفض ، ثم ترفض ... ثم ترفض مفضلة القتل والاغتيالات والقنص من فوق الأسطح ، ومن فوق المآذن والكنائس ، وكذلك إلقاء الآخر من السطح ، ولو كان طفلاً أو شاباً يافعاً ... تفضل هذا ، وتختاره عن محاولة الحوار والتقارب حتى بعد أن تم القبض على كبار زعمائهم ، وهنا لا يبقى لأي مواطن إلا الإحساس الذي يصل إلى حد اليقين بأن جماعة الإخوان لهم من العناد والقسوة والتصلب في الرأي والفعل ما لا يمكن الحد منه أو وضع نهاية له .

فنسمع مَن يقول بأنهم تنظيم عالمي ، وأنهم على درجة عالية من التدريب ، حتى إن المرء ليتصور أنهم تفوقوا على الولايات المتحدة الأمريكية في أجهزة حربها واستخباراتها .

إلا إن الحقيقة التي لمستها بنفسي في أكثر من موقع وأكثر من تاريخ مشهود ، وأنا أتوخى في كلامي منتهى الدقة والحذر والحساب ، ولكن هذا ما لمسته وعايشته بنفسي ، وأنا واعية تمام الوعي ... وهنا سأضرب مثلاً بحادثتين قريبتين ، ففي يوم ثلاثاء قريب أزعم إنه 17/ 9/ 2013م

فوجئنا نحن سكان المعادي بمظاهرة ، والمعروف عن حي المعادي في هذه البقعة بالذات ، واسمها المعادي القديمة أنها منطقة هادئة بنسبة كبيرة ؛ لوجود عدد من السفارات والقنصليات فيها ، وكذلك فيها سكن لكثير من اليهود ، مع وجود منزل السفير الإسرائيلي نفسه على مقربة ليست ببعيدة عن المظاهرة التي كانت يومئذٍ ، وكان مما أثار دهشتي أن الأعداد كانت تفوق ألفي مشارك يهتفون ويلوحون بالأعلام التي لم أتبينها ؛ لأن الشمس كانت على وشك الغروب ...

عرفت بعض الوجوه بحكم إقامتي أربعين سنة في المعادي ، عرفتُ بعض السيدات ، ومشيت معهم ، وكان هدفي أن أعرف مَن هم بالضبط ؛ لأني من ملاحظات واحتكاكات سابقة تكونت لديَّ قناعة بأنهم ليسوا إخواناً ، وقد تأكد ظني بسؤالهم ، والسير معهم قرابة الساعتين أو أكثر ... هذه الحادثة سأتركها الآن ، وأنتقل إلى يوم الجمعة بالتحديد في 20/ 9/ 2013م ، أي بعد اليوم السابق بثلاثة أيام ، وفي حوالي الرابعة إلا ربع كنت في طريقي لزيارة زميل لي ، ومن قبلها كان أحد طلابي في الجامعة ، وكان يحتفل بعقيقة ابنته الأولى ، وأنا في طريقي على كورنيش النيل ، وقبل المحكمة الدستورية توقفت العربات ، وتأكدت أن هناك مظاهرة أوقفت السير إلى أجل غير مسمى .

ولما كان الحظر سيبدأ في السابعة ؛ فكان أمامي ساعتان لأندس داخل المظاهرة الحاشدة التي لا تقل في أعدادها عن الأولى التي مرت من داخل

المعادي ... البعض يرفع الأعلام ، أو صور الرئيس السابق محمد مرسى ، والبعض يرفع الورق الأصفر الآتي من الصين ، ومطبوع عليه الأصابع الأربعة للإشارة إلى اعتصام رابعة ، وكانوا يهتفون هتافات خارجة عن حدود الأدب واللياقة ، ويقصدون الشرطة والجيش !

أكثر من ساعتين أمضيتها وسط المتظاهرين ، أتكلم برفق شديد وليونة ؛ لأعرف ما أكد لي ظني السابق بأن هذا العدد ليس كله إخواناً مسلمين ، ولا نصفه ، ولا ربعه ، ولا حتى ثمنه ، ولكنهم الفقراء والمحتاجون المهمشون ، هؤلاء هم مَن يسيرون ، وصحيح أنهم يرفعون صورة الرئيس المعزول دكتور محمد مرسي ، أو يرفعون الورقة الصفراء أو ... أو ... إلا إنهم قاطبة لا يعرفون عن الإخوان شيئاً ، ولكنهم يعرفون ويتذكرون "كراتين" الزيت والسكر والشاي التي كانت توزع عليهم ، وكانوا يأملون العيش مع الإخوان ما داموا يؤمنون احتياجاتهم ولو جزئياً ، وفي الوقت نفسه آمالهم لا تتوقف في المزيد مع الغد القريب .

ومن المؤكد أن هذه الأعداد الآتية من حلوان ، وعزبة الوالدة ، ومن البساتين ، ومن منطقة ترب اليهود ، وكذلك من منشية ناصر ومن كل الأحياء التي تحيط بالمعادي القديمة كلهم جوعى يكتوون بغلاء سعر القوت اليومي ، فلم يفكر حاكم بعد الزعيم جمال عبد الناصر في مسألة ووضع الفقراء والغلابة ، إنه هو الوحيد الذي أعاد توزيع الثروة في محاولة للتغلب على الفروق المهولة الشاسعة بين الأغنياء والفقراء ، صحيح إن ما

نفذ فيهم قانون تحديد الملكية كانوا لا يزيدون عن الألف شخص ، إلا إن العائلة فيهم كانت تمتلك مائة ألف فدان أي حوالي ألف فدان لكل شخص أو وريث فيهم !!

وكان إعادة توزيع الثروة حلاً في هذه المرحلة الأولى بالذات ، وقد تركوا لكل مالك مائتي فدان فقط ، ثم تم تخفيضها إلى خمسين فدان ، وكان هذا خطأ بكل المقاييس الاقتصادية والإنسانية والاجتماعية وأدَّى إلى بوار الأرض ، وضعف الاقتصاد ، وقلة الإنتاج ... إلخ .

ثم جاءت المرحلة الثالثة ، وهي فرض الحراسات ، وكان هذا القانون ظالماً وفاشلاً بكل المقاييس الاجتماعية ، والإنسانية ، والاقتصادية ، والسياسية ، وأزعم أن هذه الخطوة كانت الشرارة الأولى للفكرة الخائنة ، فكرة عدم الانتماء ، واستفحال الظلم ، وتصفية الحسابات الرخيصة ، إضافة إلى استشراء الحقد البغيض الذي نهت عنه جميع الأديان ... والكلام دائماً يأتي ببعضه ... وأكتفي بهذا القدر من الرأي والشهادة على عصر عايشته بكل وعي ويقظة ... فأكرر أن الفوارق المهولة والعريضة بين المصريين بمثابة قنابل كيماوية لا تُبقي ، ولا تزر ، لا على وطن ، ولا على حدود ، ولا على قيمة جوهرية في حياتنا .

إن كل شقة في حي مثل المعادي ، أو الزمالك ، أو جاردن سيتي ، أو المهندسين ، أو مصر الجديدة بكل أحيائها ... إلخ يملك أصحابها ثلاث عربات في المتوسط ، وهؤلاء ماذا يملكون ؟ وإن كان إعادة توزيع الثروة

له من المساوئ الشيء الكبير الذي لا يُستهان به على اقتصاد الوطن ، إلا إن هناك اختراعاً شديد القدم ؟! وإذن هو ليس اختراعاً ما دام شديد القدم كما أقول ! هذا الذي أسميه اختراعاً من شدة حيرتي هو قانون الضريبة التصاعدية المعمول به في كل الدول الغنية المتقدمة ، والذي كان معمولاً به أيام رسولنا الكريم ﷺ بالشكل السائد في ذلك الوقت .

الضريبة التصاعدية على الدخل هي التي تأخذ من القادر نسبة تصل إلى 97٪ بعد أن يصل إلى حد معروف من الدخل لتُعطَى للفقراء ، ولماذا نندهش ... والعاطل يمر في أي شارع ليجد العربات مرصوصة أمام المنازل ، أو حول العمارات ، أو في الجراجات ، وهو لا يملك ثمن تذكرة مترو أو ميكروباص .

إن هؤلاء الذين يسكنون العشوائيات ، ولا يجدون أماكن لتصريف حاجتهم الطبيعية ، ناهيك عن الجوع ... هؤلاء هم مَن يمشون في المظاهرات ، فيبدو للناظر أن الشعب المصري كله أصبح إخواناً ، وهذا ليس صحيحاً بالمرة ، إنه الفقر الذي يولد الغل من قسوة الحرمان الذي يبدو أنه ليس له نهاية .

الفقر بمعنى أن لا ماء ، ولا دواء ، ولا طعام ، أين التأمين الصحي الشامل ؟ بل أين أجر البطالة ؟ هل مصر فقيرة ؟ بالطبع لا ، ولكن مصر منهوبة من الواصلين ومن الفساد ، وأنا لا أريدها دعوة لأصادر فيها

مكاسب القادر نتيجة لفهمه أو تعليمه أو ميراثه أو حتى حظه أو حتى علاقاته .

ولكن أريد فقط تحقيق وتفعيل قانون الضريبة التصاعدية ، ليعمل الغني ما يشاء ويكسب ما يشاء ؛ حتى يحقق ذاته وأحلامه ، ولكن الضريبة التصاعدية التي تأخذ منه الكثير والكثير تكفل حياة كريمة للآخرين .

من هنا دخل قادة الإخوان الصف الأول منهم ، والثاني ، والثالث إلى البسطاء عن طريق زجاجة الزيت ، وكيلو السكر ، وعلبة الشاي .

لا أدري لماذا لا يتوقف كل مسئول ؟ أمام هذه الحقيقة الواضحة ... إن الآفة ومربط الفرس وأس البلاء ، وضياع هذا الوطن الذي كاد أن يضيع فعلاً ، بسبب حكامه ، رغم أنه من بعد الملك فاروق ، كل حاكم أتى إلينا كان من أبسط فئات الشعب من الشريحة الثالثة في الطبقة الوسطى ، والذي لم يستطع أن يأكل اللحم كل يوم ، أو أن يتذوق الفاكهة كل يوم ، بل ويعتمد في احتياجه على السكر لعمل كوب الشاي الصغير الذي يضع له ثلاث ملاعق سكر على الأقل .

فلماذا ينسون هذا ؟ ولماذا يتجاهلون ذلك ؟ ... وفوق ما يعانيه الفقراء المنسيون يطالعنا الإعلام بأنواعه عن مقدار دفع الكفالات بالملايين التي يدفعها صاغراً مَن هو وراء القضبان سواء من رجال الأعمال ، أو من الوزراء السابقين ... وتأتي إلينا المنح من البلاد التي ما زالت تحترم

المصريين ... ومن قبلها المعونات ، وآخرها أموال الإخوان واستثماراتهم التي فاقت الخمسة وأربعين مليار ، أين هذه الأموال من الفقراء من الشعب ؟

لماذا لا يخرج علينا أي مسئول ، أو رئيس الوزراء نفسه ، ويقدم لنا كشف حساب مفصل وحقيقي عن أوجه صرف هذه الأموال حتى لو كانت تذهب لتسديد ديون على وطننا ، أو تذهب في سداد عجز ما ، إنما نترك هكذا نضرب أخماساً في أسداس ، وبعض الفاهمين يخمنون طريقة صرف هذه الأموال في الإصلاح أو السلاح أو استيراد القمح أو ... ولكن الفقراء لا يقدرون هذه البنود ، ولا يقومون بعملية حدس ليصوروا لأنفسهم كيف تصرف هذه الأموال ؟

إن ما يشعر به البسطاء هو أنهم منسيون وفقط ، ويكون رد الفعل أن يسيروا في المظاهرات ؛ لأن المظاهرة هي المتنفس الوحيد له ؛ لأنه يعيش بلا أمل في غد أفضل ؛ لأن لا الحكام ولا الإعلام يحترمه ويقدم له – على أقل تقدير – كشف حساب ، ويقدم له ما يساعده على العيش الآدمي .

***

obeikandi.com

كان يا ما كان

كان في قديم الزمان ، وليس قديماً بالمعنى الحرفيّ ، ولكن ما أعنيه بالقدم هو ما كان قبل ثورة الزعيم المصري جمال عبد الناصر في الثالث والعشرين من يوليو عام 1952م . كان هناك جماعة من الإقطاعيين عددهم قليل ، ولكن كانوا يملكون الكثير ، فالواحد منهم يملك مثلاً مائة ألف فدان أو أكثر ، كانوا أسراً معدودة ، ولكن ما كانوا يملكونه غير معدود ولا محدود ، فهذه الفئة من الشعب بجرة قلم واحدة أخذت منهم ثورة 1952 أراضيهم كلها ، وأبقت لكل منهم مائتين فدان فقط ، ثم جرى عليهم استقطاع آخر حتى أصبح للأسرة خمسين فدان فقط !

وأنا هنا لستُ بصدد مناقشة هذا الفعل التاريخي من أساسه ، وهل كان صواباً أم ظلماً ؟ رغم المآخذ التي مست ما أسماه جمال عبد الناصر بقانون الإصلاح الزراعي ، ولكن ما يهمني هو رد فعل وسلوك تلك الطبقة المعينة والمميزة من المصريين أصحاب الأرض التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ... هذه الطبقة من الإقطاعيين التي أحبت الأرض ؛ لدرجة أنها كانت أغلى عندها من أغلى أولادها ... أحبوا الأرض والتصقوا بها ... عشقوا ترابها وعيونهم ترقب ما تجود به هذه الأرض من محاصيل يرعوها وينفقوا عليها بسخاء غير محدود ... يشقون الترع والقنوات ، ويحرصون على الحبوب حرص العين على "النني" ؛ لأنها

ستكون تقاوى وبذور زراعة المحصول القادم ... وهكذا التصقوا بالأرض ، وقيموها بأغلى من الروح ، وكلنا وعرفنا الإحساس بقيمة ما يتركه لنا الآباء أو الأجداد حتى لو كان في شكل ساعة يد أو جيب قديمة ، أو سبحة أو خاتم من الفضة بفص عقيق ، كان يلبسه الأب عن الجد ، فما بالك بمَن ورث الأراضي من الآباء عن الأجداد ، ثم في يوم وليلة استولت الثورة عليها ، بل ووزعتها على مَن كانوا يعملون عند هؤلاء الملاك كمستأجرين !

والسؤال هنا هو ماذا كان رد فعل هؤلاء الإقطاعيين ؟

كل ما عملوه أنهم ابتعدوا عن المشهد السياسي بشكل قاطع ونهائي ، وطبعاً لم يعد لديهم ما يتاجرون به ، لا في البورصة ولا في غيرها ... لأن لا مورد لديهم يأتي مع كل موسم زراعي جديد ؛ فعاشوا بعيدين مبعدين ، والأهم من هذا أنهم عاشوا راضين لم يرفع أحد منهم سلاحاً في وجه أجير أخذ أرضه تحت مسمى قانون الإصلاح الزراعي ، ولم يقتل أو يسحل واحد منهم ممن أعطته الثورة جزءاً من أرضه هو ، والأهم والأدق والأروع أنهم لم يغرسوا في أولادهم أو أحفادهم أو زوجاتهم أيَّ قدرٍ من الكراهية والحقد على الوطن "مصر" أو المصريين !

كانوا فقط يتساقطون موتى في صمت .

وهنا يحضرني مثلٌ كانت ترددده والدتي – رحمها الله – ، كانت تقول :

لربَّ زمن بكيت فيه ، فلما مضى بكيت عليه .

أقول المثل لأقارن بين هؤلاء الذين كانوا ، وبين جماعة الإخوان الذين لم يرثوا حكماً عن طريق الآباء عن الأجداد ، بل لم يمارسوا هذا الحكم لأكثر من عام ، ولما ذهب عنهم بإرادة شعب كامل .

ماذا كان موقفهم إلى اليوم ؟ الحرق والقتل من الأسطح و ... و ... وفوق هذا بيع الأرض !!! وقبض مقدم الثمن! والأفجع من هذا ... البيع لمن ؟ ليس حتى للغزاويين الفلسطينيين ، ولكن لأمريكا لتهجِّر إليها الفلسطنيين بشرط أن تتوسع إسرائيل ، وتتمكن من كل فلسطين !!

إلا إن الحقيقة التي يجب الإقرار والاعتراف بها بمنتهى الصدق والشجاعة ، هي أن حب الوطن لا يتأتى فقط بامتلاك الأرض والتراب ، ولكن يأتي ويستقر داخلنا ، في موقع القلب منا ، بسلوكيات وأفعال صغيرة متعاقبة ، تُؤَدى يومياً ، وهي التي تغرس فينا هذا الحب لطين أرض مصر ... والتي منها على سبيل المثال ، وليس الحصر مواد ومناهج التعليم التي نتلقاها في مدارسنا إلى آخر مراحل التعليم الجامعي ...

اليوم ... حين أجلس وبجوارى حفيدتي نشاهد التليفزيون ... ونشاهد البطل مهما كان مصاباً في ذراعه أو صدره ، فإنه يجاهد حتى يرفع العلم المصري ، وقد يُستشهد بعد ذلك ... فأبكي ... لا أستطيع إيقاف دموعي التي تنهمر ... فتسألني حفيدتى عن السبب ، وحين أقول لها إن الدموع بسبب فرحتي بعودة أرضنا ... فأجدها غير فاهمة للمعنى ... مضمون الموقف لم يصلها ، فكيف أطالبها بفهم الانتماء وعشق الوطن ...

المهم أنه لابد وبلا توانٍ مراجعة المناهج المدرسية بما يحقق فكرة الانتماء ، وبما يحصن الجيل الجديد من أفكار مثل الأممية ، ومثل عدم أهمية الحدود بين البلاد ما دامت الأرض ، وما عليها أرض مسلمين ... والأمر الذي يلي هذه النقطة التي أشرت إليها ، وهو أمر لا يقل في الأهمية عنه ، هو ظاهرة وجود المدارس والجامعات الأجنبية ، فعندنا المدارس الانجليزية والفرنسية والألمانية ، وربما مع الغد القريب يكون لدينا مدارس صينية ويابانية ، وهذا التعدد يعتبر ظاهرة صحية جيدة ، فلا يوجد الآن إنسان مصري إلا ويتمنى لأولاده أن يتقنوا لغة أجنبية واحدة ، إن لم يكن أكثر من لغة ، وهذا حق له ووعي وفهم يحسب له ، وسيتمتع به أولاده ... ولكن ما أريد أن أنبه إليه هو ضرورة وحتمية أن تفرض الوزارة المسئولة بعض المناهج التي تؤصل حب الوطن والحفاظ على حدوه ، والدفاع عنه ، وغرس معنى الانتماء وضرورته داخل تلاميذ هذه المدارس ... ومن المهم أن يطبق هذا أيضاً في الجامعات الأجنبية الموجودة على أرض مصرنا ... وهذا أمر سينظرون إليه بمنتهى التقدير والاحترام ؛ لأنهم يطبقونه في بلادهم ، ومع الجامعات الأجنبية على أرضهم .

أقول مرة أخرى ... سلوكيات صغيرة ، وأفعال كنا نمارسها في أبسط المواقف ، مثل الذهاب إلى السينما يوم الإجازة ، كان لا يبدأ العرض قبل أن نستمع إلى السلام الوطني ، ويهب الجميع وقوفاً إلى أن ينتهي ، فنعاود الجلوس ، وتنطفئ الأنوار ، ويبدأ عرض الفيلم ... كان أيضاً ، ونحن

نمارس الألعاب الرياضية ، وبعد التدريب الكثير تجتمع المدارس بتلاميذها في أوسع الملاعب في مدارس المحافظة بأكملها ، ونحن نرتدي الأبيض والأحمر والأسود ، الموزع على التلميذات كناية عن علم مصر ، ونشكل تشكيلات بهذه الألوان ، ونرسم ونجسد علم مصر ، أو نكتب بهذه الألوان كلمة مصر على أرض الملعب المترامي الأطراف ، كنا صغاراً ، وعيوننا تدمع حباً في مصر ... الوطن الغالي ...

أساليب ومعانٍ افتقدناها ، ولم يحسها أولادنا ... ففقدوا معها معنى الانتماء ، وحب تراب الوطن .

***

obeikandl.com

عدل الإدماج

يعيش الإنسان ، مهما طال عمره ... ثم يموت ليقابل ربه ، آملاً أن يكرمه سبحانه وتعالي في المكانة التي يأملها ، وتتعاقب الأجيال والهدف واحد ، وتحيا شعوب ثم تُفنى على هذا الأمل ، وهذه هي الحقيقة التي لافكاك منها ، ورغم جدية وعظم هذه الحقيقة ، فإننا كبشر نتقبلها جميعاً بارتياح يصل إلى حد الاستسلام والرضى بتلك المشئية القدرية ، فما هو السبب في هذا الإحساس وذاك الشعور القابع والكامن داخلنا ، رغم مرارة فراقنا للدنيا ؟

أرى أن السبب في هذا الإحساس هو ذلك الأمل العظيم ، الذى يملأ نفوسنا حتى الفيض ... بأن هناك وعند اللقاء سيتحقق العدل الكامل الذي ننتظره بشوق عارم ، هذا سواء للمخطئ فينا ، أو المقصر منا ، سواء عن قصد ، أو عن غير قصد ... فالله سبحانه وتعالى أعلم وأعرف بنا لأنه خالقنا ، آملين جميعاً في رحمة الله سبحانه وتعالى ... هنا نشعر بالراحة ونتطلع جميعاً إلى رحمة الله العليم ، حين تأتي اللحظة ، ويتحقق العدل العظيم الذي ننشده .

وهنا أقول إذا كنا ننشد العدل ، ومن قبله السلامة لهذا الوطن الغالي ، فلابد أن يكون لدينا الاستعداد والقدرة عل الصفح .

وحين أقول الصفح بشأن الوطن ، فأنا أدرك تمام الإدراك أنه الصفح الواعي اليقظ الذى لا يُفرط ، فهناك فرق بين أن أصفح عن ولدي

الصغير ؛ لأنه ألقى بعود كبريت على السجادة مثلاً ، وبين أن أصفح عن جماعة الإخوان التي أرادت أن تحرق الأخضر واليابس في الوطن ، أو التي أرادت أن تبيع هذا الوطن !! فيا للهول وغرابة ما أرادوه ؟!

إن قيمة العدل المجرد والصعب في التعامل مع الإخوان يؤكد أهمية هذا العدل بالنسبة لباقي المواطنين وضرورته التي ننتظرها !!

وهو بمنتهى الوضوح والصراحة أن يكون لهم تمثيل في اختيار طريقة وأسلوب إدارة الوطن الذي لا ينكر أحد أنهم جزء منه ، وهذا أيضاً ما يؤكد مبدأ التعددية والاختلاف شريطة مراجعة أنفسهم ومراجعة الأسلوب الدامي الذي كان ، وما زال مستمراً .

إن المراجعة آتية ... آتية ، لا ريب في ذلك بالدليل القريب منا ، وهو اختلاف موقف السلفيين ، وهم فصيل من الإخوان عن باقي الإخوان وهم منهم ! هذه المراجعة المستنيرة التي أنشدها ، وأتطلع إليها هي الحرية بمعناها العمليّ والفعليّ ، وهي عكس مبدأ السمع والطاعة الأعمى ، هذه الحرية هدفها تحقيق الاستقلال الفكري لأفراد هذه الجماعة من تسلط قادتهم الذي يصل إلى حد إلغاء عقولهم التي هي المنحة والمزية التي كرمنا بها الخالق سبحانه وتعالى عن كافة مخلوقاته كلها ، ألا وهو العقل المفكر .

مع العلم بأني لا أطلب تحقيق أو تفعيل هذا النهج الآن وفي التو ؛ لأن لا مجال لهذا الآن أمام السلاح القاتل والمتعدد الذي يوجهونه لصدور أبناء الوطن ... ناهيكَ على أن الموجود على الساحة الآن ليس الإخوان فقط ، ولكنها حماس وغيرها ، وهم أفرع من القاعدة ، بالإضافة إلى أصحاب

الجرائم الذين منهم مُهربو المخدرات وتجار السلاح والبلطجية والخارجون عن القانون ... إلخ ، ولكنها سياسة يمكن استخدامها في المستقبل غير البعيد جداً ، وبعد أن تهدأ الأمور الأمنية تماماً ، ونقضي بإذن الله على القاعدة والإرهاب في سيناء أرضنا ، وفي غيرها كذلك ... بعدها يمكن لنا أن ننهج سياسة الدمج العادلة .

وأنا لا أدعي أني أتيت بجديد ، فوجهة النظر هذه ، وتلك الرؤية بعينها راسخة في أذهان مسئولينا ؛ لأنهم على وعي تام وأكيد بحقوق حتى الخارجين والمتهورين وغير المستوعبين لما يجري في وطننا الغالي ؛ وذلك لأن من ضمن مهامهم الجسام مهمة التقويم والتوضيح لأبناء الوطن ، مهما وصل بهم الجهل والشطط .

وقد يقول قائل لا وألف لا لهذا الرأي ، على أساس أن نعيد معهم سياسة الإقصاء والسجون ، وهنا مربط الفرس الذي أريد أن أصل إليه ، ففي السجون والمعتقلات مهما طالت ينمو العمل تحت الأرض وفي الظلام ، ويغيب عن الجماعة فكرة التطوير والتعديل ، بل يغيب التفكير من أساسه على أن يمارسوه ، رغم أننا نعرف حقيقة أنني ما دمت أفكر فأنا أتعلم من الخطأ والصواب ، أي من التجربة التي مررت بها ، ومن ثَمَّ أتعلم أن أعدل من أفكاري ، وأستبدلها بأخرى في عملية قد تطول ، وقد لا تنتهي مهما طال العمر ، ما دمت أعيش وأعمل وأطالب وأسأل في النور ... أما السجون ، فتجمد الفكر وتخلق إحساساً عكسياً يقولون به لأنفسهم :

إنهم يسجنونني ويُقصونني؛ لأني أنا الأحسن ، وأنا الأفضل ، وأنا الأكثر إسلاماً و ... و ... و ... بالإضافة إلى تجمد وتصلب أفكارهم عن فهم هش ضيق نطاقه الجماعة ، وليس كل الشعب المصري المتعدد الأديان والعقائد والملل والقيم ... السجون فقط هي بمثابة معامل تفريخ لجيل جديد من الإخوان يعيد كل ما حدث وجرى من تاريخهم السابق ، الذي وصل إلى حد بيع الأرض والوطن ! وفوق هذا إحساسهم بأنهم أصل الصلاح ، وما عداهم هو كل مَن ضل وهوى إلى الحضيض .

فهل نأمن من هجمة أخرى كالتي حدثت طوال عام حكمهم من قتل في وضح النهار ، وتجميع الجثث تحت المنصات التي يخطبون من فوقها ؟! صور تتلاحق في عقلي لا أعادها الله – لهذا أنادي بأن ندعهم يعملون في وضح النهار ، وسيعدلون ويقيمون من أنفسهم على مهل ...

لأن فكرة احتكاكهم اليومي بالناس وبالقوانين ، وفي المحافل الرسمية وغير الرسمية و... و... كل هذا سيؤدي إلى تعديل شخصية هذا الفصيل الذي طال عمله تحت الأرض ثمانين عاماً .

هذا ما يجب أن نعلمه ، فليس كل إخواني إنساناً متطرفاً في رؤيته لنفسه ، وليس كل إخواني دموياً ، وليس كل إخواني يبيع وطنه ، وإن لم يكن ما أقوله صحيحاً ، فواجب الدولة أن تصحح نظرته للدين والحياة والمرأة و... و.... إن واجبنا صعب ؛ لأننا سنبدأ معهم من أول حب تراب الوطن إلى الوقوف لتحية العلم ، حتى إلى المشاركة في غناء نشيدنا الوطني الذي تدمع له القلوب قبل العيون .

الجزر المنعزلة

أمر لافت ، وصادم لعقولنا ، ويحدث في مصر بالذات دون دول العالم المتقدم ، ويبدو معه أن هذه الحالة لا نهاية لها ! وما أقصده هو حال السادة الوزراء ، والوزارات التابعة لهم ، مع أن الأمر في جوهره لا يستحق كل هذه الخسارة ، وكل هذا التأخير والتعطيل الذي يقع بالضرورة على المواطنين الذين رأسوهم عليهم وجعلوهم وزراء عنهم !

وإذا كان الحديث المعروف عن الرسول ﷺ يقول "خَادِمِ القَوْمِ سَيدُهُم" ... هذا الحديث يجب أن يُنظر إليه ويُفهم معناه بكثير من القدسية والتقدير ... وإذا اعتبرنا أن كل وزير هو الخادم الأول في وزارته ، التي من المفروض له معها ألا يغمض له جفن من عِظم وكبر المسئولية التي يضطلع بها ؛ بسبب أنه الوزير ، أي الرجل المسئول الأول والأخير عن خدمة شعبه الذي وضع فيه الثقة والأمل في غد أكثر راحة ، يصل فيه المواطن إلى حد فيه قدر من الأمان ونيل الحقوق ، أو قل الحد الأدنى من حياة كريمة ، حتى يعطي عن طريق الوزارة التي يترأسها هذا الإحساس للمواطن ، وهذا الحد من الحياة يستحق أن يُعاش ...

فأولاً يجب أن يقوم التعاون المستمر الذي لا ينقطع لساعة واحدة بين الوزارات كافة ، إلا إن ما نراه ونلمسه أن هذه الوزارات بعينها بوزرائها عبارة عن جزر منعزلة عن بعضها البعض ، ومن ثَمَّ فإن التعاون بينهم

مفقود تماماً ... ومنذ كنا صغاراً في رياض الأطفال كان لابد لنا أن نتعاون مع بعضننا في أبسط أمورنا ، منذ أن كنا نلعب لعبة "العسكر والحرامية"، كان لابد لنا أن نجتمع ونقوم باختيار مَن منا سيكون العسكري مثلاً ... إذ لا يوجد على وجه الدنيا عمل مهما صغر ، أو كبر يقوم به فرد دون تعاون مع الآخرين ، ففي التعاون تحقيق أكيد لأي هدف ، ولماذا نبعد ونحن نحفظ عن ظهر قلب الآية التي تقول : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة : 251] .

إذن ، بمنتهى البديهية لابد من التعاون حتى تتحقق الأهداف ، ولكن الأقسى والأكثر سواداً من حقيقة أن الوزارات جزر منعزلة عن بعضها ، أقول الأسوء ، بل والأدهى أنه لا يأتي وزير جديد إلا وكل هدفه وغايته ، وأول ما يحرص عليه مع أولى خطواته عبر باب مكتبه هو أن يهدم ويمحو ويلغي كل عمل أو مشروع أو حتى فكرة أقامها الوزير السابق عليه !!

وكأنه ممسك بقلم أحمر يشطب به كل ما كان لسلفه !! حتى نحسب أن بينهما عداوة ودم ، وقد حان الآن القصاص !

إن الوزير الجديد لا يمكن ، ولا تسمح نفسه بأن يتمم ما بدأه الوزير السابق عليه ، إنما لابد أن يرفض وأن يهدم تحت أي مسمى !!

بينما يكون هناك وكلاء الوزارة ، ولابد أنهم فاهمون القصد من مشروع الوزير السابق ، ومسئولون عن تنفيذه على أساس أن المفروض أن يكون

للوزارة سياسة واضحة ومعلنة ، وهي بمثابة العمود الفقري لعمل الوزارة ، فيكون عمل الوكلاء إتمام المشروع أو الفكرة ، لا أن تتجمد كل المراحل التي سبقت ليبدأ الوزير الجديد من الصفر !

لماذا لا يطيق السادة الوزراء بعضهم البعض ، وكأن بينهم حرب ضارية على هدم فكر وجهد مَن سبق الوزير الجديد ؟ وكم يكلف هذا الدولة ؟ وكم يستنزف هذا من شعبنا المطحون ؟ والذي ينتظر أي مشروع إصلاحي ؛ ليكون فيه خلاصة من بعض المعاناة والكد غير المجزى في بلادنا ... إن مشاكلنا نعرفها جميعاً ، ويعرفها أكثر رجل الشارع ، فهي 1 2 3 4 ... إلخ .

والوزير القديم والجديد من جنس الشعب يعرف هذه الحقائق ، كما يعرف أن الاختلاف لا يكون إلا في طريقة التنفيذ مثلاً ، ولكن الاستيعاب العقلي للقديم من المشاكل ، والجديد واحد . فالوزير ليس مبتكراً وليس عالماً في الأغلب ، ولكنه رجل إداري منفذ للأهداف ، وهذه مزية لا يستهان بها ، ولا نقلل من شأنها بالمرة ، فلماذا لا يتمم ما بدأه السلف ، ولو لم يكن الجديد راضٍ عنه تماماً ، فإن في إتمامه ربحية وفائدة أكبر للوطن ، وفوق هذا فإن الوزير الجديد يستطيع أن يعدِّل ، وأن يضيف حتى يحقق أعلى مستوى فني أو مادي نابع من رؤيته الخاصة ؛ وذلك لأن المشاكل والمواجع معروفة ، وهي 1 2 3 4 ..... إلخ ، كما ذكرت .

لماذا لم يرَ تاريخ مصر – وأنا لا أدعي معرفتي بالتاريخ ، ولكني أعرف على الأقل تاريخ مصر في أول ثورة 1952 – فأقول لماذا لم يرَ تاريخ مصر المحروسة وزيراً واحداً رضيَ وقبل أن يتمم عملاً لسلفه ؟ مهما كان لسلفه هذا من رؤى في أي أمر من أمور الوزارة والمواطن المصري ... إنما يذهب الوزير ، فتغتال وتُقتل كل مشاريعه التي بدأها ، وكلفت الدولة الملايين من دم الشعب المصري .

أمنية أتعجلها ... أن يأتي اليوم الذي يحترم ويقدر فيه الوزير الجديد الوزير السابق أو حتى الأسبق ، ويتمم بسماحة وسعة صدر وتسامي ما بدأه سلفه ، والحقيقة أمامنا مغروزة داخل عيوننا وعقولنا بأنه لا دوام لمخلوق في عمر هذه الدنيا القصيرة ... القصيرة ...

أملي أكيد في تحقيق هذا على أرض الواقع مع اليوم الذي يأتي فيه وزراء من الشباب ، فهم بالتأكيد لم يبتعدوا كثيراً عن المرحلة الجامعية ... هذه المرحلة التي يتجسد فيها بقوة معنى الاحتياج الشديد للتعاون وليس الهدم .

***